ديالكتيك الأنسنة واللأنسنة في الخطاب الفلسفي لابن حزم
كتاب طوق الحمامة نموذجًا

د/إيمان محمد محمد عمران

قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية – جامعة عين شمس

المستخلص:

تسعى الدراسة إلى تأكيد أهمية كتاب طوق الحمامة لابن حزم، ودوره المهم في أنسنة العلاقات الإنسانية، والتأكيد على حرية الإنسان، ودور الفيلسوف الإصلاحي.

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة إشكالية الأنسنة عند الفيلسوف والفقيه الأندلسي ابن حزم" ، من خلال عرض وتحليل أهم مواقفه الفلسفية الداعية إلى النزعة الإنسانية؛ وذلك لاستنباط شروط تحققها ومجمل قواعدها الأخلاقية من خلال دراسة كتابه " طوق الحمامة"، مع الكشف عن أهم الآليات التي ينبغي على الإنسان الواعي فعله في سبيل إثبات تحرره من خلال الوقوف ضد فكر القهر الإنساني الذي تمارسه المجتمعات ضد أفرادها، خاصة فيما يخص المشاعر الإنسانية. كما سعت الدراسة للتأكيد على فكر اللأنسنة الذي كان سائدًا في الدولة آنذاك، وأسهم في تراجعها الحضاري، هذا الذي حرم الإنسان من أن يعيش وجوده الفعلي، وحياته الحقيقية في حرية وأمان يضمنان تأديته لرسالته التي خُلق من أجلها.

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي، وقسمت الدراسة لعدة مباحث، انتهت إلى النتائج التي تؤكد سعي ابن حزم في أنسنة العلاقات الإنسانية.

الكلمات المفتاحية:

الحرية، القهر، الاستغلال، الحوار، الوعي

مقدمة

لقد شغلت الأنسنة " بمفهوم عصرنا " أو الأخلاق والسلم المجتمعي والحرية للإنسان بمفهوم ابن حزم، اهتمامات الفلاسفة عبر العصور، لأنها – من وجهة نظرهم – الضامن الرئيس في حياة الإنسان، تحفظ كيانه، وتضمن حريته، وممارسته لواقعه الإنسان دون قهر أو خوف من سلطة المجتمع المستبدة، فالأنسنة تعد مطلبًا أساسيًا من مطالب الحياة الإنسانية، التي تعزز وجوده في واقعه المجتمعي؛ لأنها تكسبه الثقة بالذات، والمقدرة على الحياة والتصرف في تبعاتها باستقلالية. لقد انطلق ابن حزم في تأسيسه لفكره الإنساني من قيمة الحب، الحب بالمفهوم العام وليس الخاص فقط، فلم يكن الحب عنده هو علاقة الرجل بالمرأة، بل كانت علاقة الإنسان بالإنسان، تلك العلاقة التي تضمن رقي المجتمعات وتحضرها، وتُبقي على استقلاليتها، وتؤسس لحالة من النجاح والأمن الإنساني، لقد وعى ابن حزم برؤيته الفلسفية أن قيمة الحب هـ القيمة الأسمى التي تضمن للإنسان استقراره، وتصالحه النفسي، فمجتمع الكراهية لا يخلق سوى مجتمعات رجعية متخلفة، لا تنتج حضارة، وكانت هذه نقطة فارقة في فهم ابن حزم لمجتمعه الأندلسي في لحظة فارقة في التاريخ، في مرحلة التحول من الصعود الحضاري إلى الهبوط الحضاري، من الانفتاح وسيادة العقل والحضارة، إلى الانغلاق وسيادة الجهل؛ لذلك كانت رسالته طوق الحمامة رسالة حمل خطابًا إنسانيًا لمجتمعه؛ كي ستفيق ويعاود رحلة الحضارة من جديد.

إن الفيلسوف الحقيقي هو الذي يعي جيدًا رهانات عصرِه، معارفه الراهنة، أفكاره الثابتة والمتغيرة، إنه الأكثر دراية بكل ما يحيط بعصره، وتراثه الفكري السابق عليه، الذي يسهم في تشكيل وجدان الأمة التي يحيا فيها؛ لذلك كان ابن حزم في كتابه طوق الحمامة يتعاطى مع رهانات عصره، ومعارفه التي أوشكت على الجمود، والولوج في حقب التحول نحو التراجع الفكري والثبات المعرفي، فجاء خطابه، خطابًا إصلاحيًا، يراهن على العقلية المتجددة في أبناء عصره.

فرغم كونه فقيهًا، لكنّه لم يكن فقيهًا جامدًا، لا يقبل بالفكر الإنساني، بل كان أقرب إلى الفقيه الفيلسوف، الذي ولج المشاعر الإنسانية، مراهنًا على بعثها، وبعث الروح فيها من جديد، ويبدو ابن حزم متناقضًا في هذا، خاصة مع ما عرف عن مذهب الفقهي من الوقوف

عند الظواهر لا التأويل الباطني للنص، ورؤيته للإنسان، مشاعره، حياته، لكن هذا ليس تناقضًا، لو فهمنا أن الرجل كان يتعامل مع ما هو ديني إلهي، وما هو بشري، تنزع النفس الإنسانية إليه من أجل الشعور بالحياة، وبين الفكر الديني الذي عليه أن يضبط النفس الإنسانية، ويمنعها من الجموح الذي قد يقتل الروح، ويفسد المجتمع؛ فجاء خطابه هنا؛ ليخفف من قمع العادات والتقاليد، ويبين أن النفس الإنسانية تحتاج للحظات تمرد؛ لتشعر بالحياة، خاصة لو كان تمردها هذا خاصًا بمشاعر الحب التي تسمو بالإنسان.

إن خطاب ابن حزم كان خطابًا تواصليًا، يسعى للتوفيق بين الإرث العقلي الاجتماعي للمجتمع الأندلسي، والإرث التجديدي الذي كانت العقلية الأندلسية نتاجًا له في حقب ازدهارها، لقد سعى إلى إحداث ثورة اجتماعية فلسفية من خلال أنسنة خطابه التجديدي المرتبط بالعقل الجمعي غير المنفصم عنه، فمنذ استهلاله للكتاب، وهو يؤكد أن رؤيته تقصد الجمع بين روح العقل والتجديد الذي يضمن للمجتمع صيرورته الحياتية، وصحته النفسية، وتخليصه مما علق به خلال حقب التوتر والتراجع السياسي والحضاري من خلال اختراق التابهوات الاجتماعية للمجتمع، ومعاودة طرح تساؤلات حداثية – بمفهوم عصره – تضمن للخطاب الفلسفي تحديثه وتطويره مع الحفاظ على روح الثقافة الوطنية، غير متعارضة معها، أو غير متخاصمة. خاصة مع شيوع الجفاف والرياء بين أفراد المجتمع كما يشير هو في كتابه" أودك وداً ليس فيه غضاضة ... وبعض مودات الرجال سراب."[1]

تسعى الدارسة إلى الكشف عن الجدلية المحتدمة بين الأنسنة واللأنسنة أو بمعنى آخر بين ما هو إنساني يضمن حياة الإنسان واستقراره وحريته، وبين ما هو غير إنساني يزعزع ثقة الإنسان في نفسه وفي محيطه الكوني، فالدراسة أبرزت فهم الفيلسوف ابن حزم لأمراض المجتمع وعيوبه التي تؤثر في مسرته الحضارية، وتعوق تقدمه، وتحوله إلى مجتمع منغلق تسوده الكراهية وتعلو وتيرة العنف فيه بكل صوره، لذلك ألف كتابه " طوق الحمامة " في الحب، مؤكدًا أنه القيمة الرئيسة التي تؤسس للأنسنة بمفهومها المعاصر، والإنسانية – بتعبير عصر ابن حزم –.

[1]) ابن حزم، طوق الحمامة في الإلفة الإلاف، تح: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1987م ص: 85

تهدف الدراسة إلى الكشف عن الدور الفيلسوف في فهم مجتمعه والتعبير عنه، ووضع رؤية مؤسسة منهجيًا لعلاج ما علق به من صفات قد تعق تطوره وتحضره، فن=من خلال الكشف عن ديالكتيك الصراع بين الأنسنة واللأنسنة داخل الخطاب الفلسفي لابن حزم من خلال عرضه لواقع عصره الإنساني عبر قصص الحب الإنساني العام – بين الإنسان والإنسان – والخاص بين الرجل والمرأة، ورؤية المجتمع والدين في تلك القيمة الإنسانية الكبرى.

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الفلسفي لخطاب ابن حزم، كاشفة عن أغواره الفلسفية ورؤيته الإصلاحية من خلال التحليل والتأويل.

جاءت الدراسة مقسمة لعدة مباحث كالتالي:

المبحث الأول: **أنسنة الخطاب الفلسفي عند ابن حزم:**

المبحث الثاني: **اللأنسنة وخطاب ابن حزم**

المبحث الثالث: الحب بوصفه خطابًا إنسانيًا عامًا " أنسنة الحب "

المبحث الرابع: طوق الحمامة وأنسنة الفكر النسوي في عصره:

جاءت الخاتمة لتتضمن أهم النتائج الخاصة بالدراسة التي كشفت عن أهمية خطاب ابن حزم الإصلاحي، الذي كان مؤسسًا لمفهوم الأنسنة في الفكر الفلسفي الإنساني.

أنسنة الخطاب الفلسفي عند ابن حزم:

من الواضح أن ابن حزم الفقيه الظاهري كان على وعي بمفهوم أنسنة الخطاب عمومًا، وأنسنة الخطاب الديني خصوصًا، بمعنى أن الدين أو الخطاب الديني لا بد أن يراعي البعد الإنساني، النفسي، والاجتماعي في المجتمع الذي يخاطبه أو يحيا فيه، وكان هذا من بين مسببات تأليف ابن حزم لكتابه طوق الحمامة، وكأنه قصد أن يقول إننا بشر، لنا غرائز، وهوى في القلوب، مهما كنا علماء دين، أو فلاسفة؛ فالبعد الإنساني فينا هو الأقوى، وعلينا إجادة التعامل معه، أو بمعنى أدق ترويضه، كي نضمن سلامة المجتمع، والوعي بالخطاب الديني.

فالأنسنة " هي مركزية إنسانية متروية، تنطلق من معرفة الإنسان، وموضوعها تقديم الإنسان وتقييمه واستبعاد كل ما من شأنه تغريبه عن ذاته، سواء بإخضاعه لحقائق ولقوى خارقة للطبيعة البشرية، أو بتشويهه من خلال استعماله استعمالًا دونيًا، دون الطبيعة البشرية".[1]

ولقد ارتبط ظهور النزعة الإنسانية أو المذهب الإنساني بعصر الإصلاح الديني والنهضة الأوروبية، التي جعلت الإنسان بؤرة ومحور الكون والإعلاء من شأنه، ككائن حي يتميز بسموه العقلي ومكانته في البحث الحر، وبقوة علمه باعتباره هو مصدر المعرفة التي تحرره من أي سلطة ميتافيزيقة كانت، وبالتالي توجيه الاهتمام في المستقبل إلى كل قضايا الإنسان، من أجل الحفاظ على كرامته وحريته، وفسح المجال لإبداعاته."[2] لم تكن عصور النهضة الغربية بعيدة عن عصر ابن حزم، ولم تكن كذلك بعيدة التأثر بالفكر الأندلسي، ذلك الفكر والفلسفة اللذان منحا الغرب أسباب النهضة والثورة الفكرية، فليس بمستبعد أن يكون فكر ابن حزم الفلسفي والديني المهتم بالإنسان والإنسانية ويؤسس لهما، رافدًا من روافد خلق ما يعرف بالإنسنة الغربية، خاصة مع ترجمة التراث الأندلسي إلى اللغات الأوروبية قبل عصور النهضة. فيبدو من خلال خطاب طوق الحمامة أن المجتمع الأندلسي المنفتح حضارة، فكرًا، وعلاقات اجتماعية، استطاع أن يخلق فكرًا فلسفيًا مؤسسًا للإنسانية وحماية الإنسان من التغريب والقهر، بمنحه حريته.

يعد ابن حزم الفقيه الظاهري فقيهًا إصلاحيًا يهتم بالإنسان، وحريته، وعلاقاته الاجتماعية، لا يتعالى على أحد بفقهه، ولا بعلمه، ولا أسرته، فهو يؤمن بحق الإنسان في الحياة الحرة، والكرامة الإنسانية؛ لذلك جاء خطابه الإنساني مرتبطًا بأهم ظاهرة إنسانية تربط بين البشر وهي علاقة الإلفة والإلاف، أو بالمعنى الدارج علاقة الحب الإنساني، الذي من خلاله رصد كل حيوات الإنسان، وأفعاله، ومنطقه، مؤكدًا من خلال خطابه على الحرية الإنسانية لكل إنسان.

---

[1]) أنظر أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب أحمد خليل، مجلد 2 - ، منشورات عويدات بيروت (باريس)، ط 1 ، 1996 ، ص. 569

2) تيرس حبيبة، ديالتيك الأنسنة واللانسنة في فلسفة المقهورين عند باولو فريري، مجلة متون، جامعة مولاي الطاهرة سعيدة، أبريل 2019م ص: 62

" والحق أن مطلب الأنسنة بالنسبة للخطاب الديني لا يعني القول بأن الدين برمته من صنع البشر، على النقيض من القول بأن الوحي من تنزيل الله، وإنما تأكيد بشرية التدين، ودنيوية تقبل الوحي، تاريخية تأويله، والإقرار بأهمية البعد الاجتماعي في الاعتقاد، والفضاء التواصلي، للإيمان، والاشتغال على مخزون المقاصد على مستوى الاستحسان والمصالح والذرائع".[1] لقد كان ابن حزم على وعي حقيقي بأهمية البعد الإنساني الاجتماعي للإنسان في مفهوم الدين، وأن الدين أمر إلهي، والتدين فعل بشري؛ لذلك سعى لتأكيد تلك الحقيقة من خلال خطابه في طوق الحمامة، وهذا ما ستكشف عنه الدراسة في مباحثها المختلفة.

يشير ابن حزم في مطلع خطابه أو كتابه أنه في حكاياته أو مروياته لن يلجأ إلى غير بيئة عصره؛ لأنه قصد عملية التواصل الفلسفي القائمة على التطوير والتحديث، والتخلص من جفاف الحياة بصفة عامة في الأندلس.

" والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلي مستعار."[2].

أكد ابن حزم جدية خطابه، ورغبته في التواصل الفكري الفلسفي مع مجتمعه؛ بهدف ربطه بمستجدات العصر، وبأنسنة الواقع الأندلسي– وفق المفاهيم الحديثة – أو بالروح الإنسانية كما يراها؛ لذلك عمد إلى الأسلوب الأدبي في الكتابة الفلسفية، " فعلى الرغم من ثراء الخطاب الثقافي – الفلسفي – وغنى مادته وتفريعاته المعرفية في طوق الحمامة، فإن الدارس لا يستطيع أن يتجاهل نية مؤلفه " ابن حزم " في إسباغ الثوب الأدبي على نصه، والتمسح بجماليات الخطاب الأدبي وشعريته، وهي نزعة تبدو جلية، إن لم تكن متعمدة وشديدة الحضور، ولنا أن نتلمس أسباب هذا الميل للجمالي، والشعري في نص يتأسس في الدرجة الأولى على المنهجية الفكرية والعلمية، وهي أسباب دانية ولها دوافعها الظرفية ذات الصلة بطبيعة العصر، وشروط التلقي، وأعراف المؤسسة الثقافية حينذاك أواخر القرن التاسع

[1]) د. زهير الخويلدي، أنسنة الخطاب الديني، e-Kutub Ltd ، لندن، ط1، 2018م، ص: 10
[2]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 87

وأوائل القرن العاشر الميلادي."[1] إن التساؤل عن أسباب أدبية النص الفلسفي في طوق الحمامة يعد تساؤلًا وجها لتبيان حقيقة رؤية المؤلف الذي كان يقصد تخفيف جفاف الخطاب الفلسفي الموجه للنخب والعامة، وخلق أنسنة " روحًا إنسانية " تسود المجتمع وتؤسس لحياة حضارية، تُعلي من قيم الإنسان وحياته.

وهذ القصد الأدبي هو الذي دفع ابن حزم للتأكيد أن خطابه ضرورة فكرية مجتمعية، وليست رفاهية فكرية تعود له ولرؤيته فقط، إنما هي نتيجة طلب مجتمعي مثّله صديقه المقرب الذي طلب منه أن يكتب في هذا الموضوع " وكلفتني – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، لا متزايداً ولا مفنناً، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره، فبدرت إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من العفو."([2])

ما يؤكد أن طوق الحمامة خطاب فلسفي مقصود لعلاج أمراض المجتمع، وأنه مطلب إنساني، سعى إليه بعض أفراد المجتمع؛ لتأكيد الروح الإنسانية التي ينبغي أن تسود، ساق لنا ابن حزم طلب صديقه، لتأكيد حتمية تأليف هذا المؤلف، والتركيز فيه على المجتمع الأندلسي فقط، من خلال رصد الواقع وتبيانه؛ بهدف الكشف عن عيوب، وأمراضه، وإيجاد سبل لأنسنته، وتغليب الروح الإنسانية فيه.

<u>اللأنسنة وخطاب ابن حزم</u>

بنى ابن حزم رؤيته في أنسنة الخطاب معتمدًا على مركزية الشعور والقلب، وأنهما هما اللذان يجعلان الإنسان مختلفًا عن غيره من خلق الله، فالحب، صفة أساسية وضعت في الإنسان بهدف تعمير الكون واستقراره وحفظه، بعيدًا عن خطاب الكراهية؛ لكن الإنسان انحرف عن الحب، أو مركزية الشعور الإيجابي إلى الشعور السلبي القائم على العدوان،

[1]) نجمة إبراهيم إدريس، طوق الحمامة خطاب في الأدب أم الثقافة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج 25، ع، 100، 2007م ص: 14

[2]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 86

وتحول هذا السلوك إلى واقع مجتمعي، أربك فكر الفيلسوف والفقيه ابن حزم فقصد إلى الإشارة إليه وتعديله.

التوتر السياسي واللأنسنة

يؤمن الفلاسفة ومن بينهم ابن حزم أن العوامل السياسية تلعب دورًا مهمًا في تشكيل مركزية العقل، والذات، والشعور، فكلما كان الاستقرار حاضرًا في الدولة، كان الإنسان الفرد فيها ينعم بذاته، ويحيا بنوع من الإنسانية والكرامة، ومع كل توتر واضطراب، تتعقد الأمور، ويفقد الإنسان حريته، وأمنه، وخلق هذا الجو من الاضطرابات "اللأنسنة" في الأندلس، وبدَّل المفاهيم، وجعل الجسد والجوانب المادية هي المهيمنة، وتوارت مركزية القلب، والحس الإنساني، فعلا صوت خطاب الانتقام.

وهذا مأ أكدته إشارته إلى نتائج التوتر السياسي وما يتبعه من صراعات، وفوضي، ودماء

" ليس لي غير ذكركم من حديث لك عندي وإن تناسيت عهد ... في صميم الفؤاد غير نكيث فكنا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين، ... فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب فصرنا إلى حصن القصر، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي."[1]

عندما تحل الفوضى، والاضطراب السياسي تنتصر شهوة الانتقام، وتغيب الإنسانية، وتتمحور الإنسانية حول الذات؛ لذلك تعلو وتيرة العنف، وغياب الإنسانية، حتى في أدق العلاقات وأقربها للنفس.

يؤكد خطاب الطوق أن اضطراب المفاهيم، وغياب الرحمة والإنسانية، يفرض شهوة الانتقام؛ حتى بين المتحابين، فنجد عاشقًا يسعى في ضرر من يعشق؛ لأنه رفض حبه، أو كان قلبه مشغولًا بغيره، وهذه كما يرى ابن حزم شديدة الخطورة، تؤكد على لاإنسانية النفس.

" وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط؛ وذلك أن يرى المحب من محبوبه غدراً أو مللاً أو كراهة؛ فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه على

[1]) ابن حزم طوق الحمامة، ص: 261

المقصود من الكشف والاشتهار، وهذا أشد العار وأقبح الشنار وأقوى شواهد عدم العقل ووجود السخف. وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخواني من أبناء القواد."[1]

تأتي إشارة خطاب ابن حزم؛ لتؤكد غياب الأنسنة عن النفس المضطربة، التي تربت في الفوضى، والخلل السياسي أو المجتمعي، فتشيع اللاأنسنة التي " لا تميز حقيقة أولئك الذين سلبوا إنسانيتهم، فحسب، بل أيضا وبطرق أخرى حقيقة السالبين، ذلك أن اللاأنسنة في جوهرها إخلال بقدرة الإنسان على أن يمارس وجودًا بشريًا كاملًا."[2] وهذا ما تحدث عنه خطاب الطوق، فالمحب الذي يسعى للانتقام ممن يحب، هو في حقيقته يسعى إلى منعه من الحياة الكاملة، أو قهره، وحجب الوجود البشري عنه، بالانتقام، الإرهاب النفسي.

اللأنسنة والقهر النفسي:

كان ابن حزم منحازًا للحرية الإنسانية، مع ضرورة الالتزام بمبادئ التدين، شريطة ألا يطغى أحدهما على الآخر، فالحرية الإنسانية أو الأنسنة لابد وأن تلتزم بحدود تنسحب على الآخر، وتلتزم بالدين الذي يسوس الإنسان، ويغرس فيه أهم أسس الأنسنة، والتدين يبقى منظمًا لا قامعًا للحرية الإنسانية، وقاتلًا للإبداع ، لقد كان ابن حزم من أولئك " الذين لا يسمحون لتصوراتهم أن تكون رهنًا لدائرة مغلقة، تحبس الحقيقة في داخلها، بل على العكس من ذلك، فكلما ازدادت – الحرية الإنسانية – ازداد حبه لمعرفة المزيد عن الحقيقة، وبذلك يستطيع أن يقوم بدور التطوير على أحسن وجه، – فالحر – لا يخاف مقابلة الناس أو المواجهة أو الاستماع حبًا في كشف المزيد عن حقيقة العالم، وهو أيضًا لا يخاف مقابلة الناس أو الدخول في حوار معهم؛ لأنه لا يعتبر نفسه، مالكًا للتاريخ، بل محررًا للمقهورين، ويعتبر نفسه محاربًا في صفوفهم في إطار العمل التاريخي."[3] لقد كان خطاب ابن حزم خطابًا إنسانيًا، يراعي خبايا النفس، وأحوالها، سعيًا إلى فهم الإنسان لذات الإنسان، وحُسن التعامل معه، على كافة المستويات؛ حتى تلك المستويات الخاصة التي تسكن القلوب والأرواح.

---

[1]) المرجع السابق، ص: 152

[2]) باولو فرايري، تعليم المقهورين، تر: د. يوسف نور عوض، دار القلم ، بيروت، ، ص: 27

[3]) انظر: المرجع السابق، ص: 23

" وأنا اعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخط، فباعها، فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقها النحول والأسف، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت، وكان ذلك سبب موتها؛ ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولاً ورقة فقالت لها: أحسب هذا الذي بك من محبتك لفلان، فتنفست الصعداء وقالت: والله لا نسيته أبداً، وإن كان جفاني بلا سبب. وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً."[1] يتدرج خطاب طوق الحمامة في عرض نماذج القهر، فبعد قهر الحكام، يعرض قهر الأحبة لبعضهم البعض، دون مراعاة لود سابق، وعشرة طويلة، وإنسانية لا بد أن تحترم، فلخطأ ما، يقرر الرجل أن يبيع جاريته، التي تحبه، فتشعر بالقهر، هذا القهر الذي يؤكد النص أنه يقتل فيها أسباب الحياة؛ فتحيا في وجع مستمر، يجعلها تمرض، فترحل عن الحياة.

" وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند،... ، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام، وكانت قد شفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به، حتى صارت كالخيال المتوهم دنفاً، لا يلهيها من الدنيا شيء، ولا تسر من أموالها ... إلى أن توفي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً."[2]

يبدو خطاب ابن حزم متفقًا مع خطاب باولو فريري في كتابه "تربية القلب في مواجهة الليبرالية الجديدة " فكتابه كان نتيجة لواقع معاش، لأوضاع حقيقية، رآها، وعاينها، فجاءت أفكاره، وأخباره من عمق التجربة الإنسانية الحقيقية، التي رآها فريري، –وكذلك ابن حزم –لا تمت للإنسانية بأية صلة، وتعبر عن القيود الاجتماعية المفروضة على الإنسان، فتقيد حياته، وتقهره يقول فريري " إن وطني هو ذلك التعايش الدرامي بين مختلف الحقب، التي

[1]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 259
[2]) المرجع السابق، ص: 259 : 260

تزامنت مع بعضها في الفضاء الجغرافي نفسه، الرجعية، والبؤس، والفقر، والسلفية، والفكر الغيبي والتسلط."[1]

ويقول ابن حزم مؤكدًا كذلك منهجه الإنساني القائم على المعايشة والمشاهدة، بنقل تجارب الحياة كما هي بوضعها الدرامي – على حد تعبير فريري – " والذي كلفتني فلا بد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زماني، فاغتفر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً وبحسبي أن اسمي من لا ضرر في تسميته ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره."[2] إن منهج ابن حزم يؤكد رؤيته الإنسانية، التي تتوافق مع الرؤية الحديثة، في مفهوم الإنسانية أو "الأنسنة"، القائمة على نقل الواقع الإنساني و الاجتماعي، كما هو بدراميته، من أجل تحقيق الهدف الأسمى، وهو أنسنة الواقع.

<u>اللأنسنة وخطاب القهر الاجتماعي:</u>

تشهد الأمم والمجتمعات عصور تحولات كبرى، تنطلق فيها البلاد من حال إلى حال، ففي أوقات التحولات السياسية الكبرى، تبدأ المجتمعات في المعاناة الإنسانية، ففي تلك الحقب أو العصور، تهيمن على المجتمعات الأفكار الراديكالية المتطرفة، سواء كانت اليمينية التي تتجه إلى فكرة القمع الديني، أو التطرف في الانحراف والتحلل الأخلاقي، وبين هاتين الظاهرتين، يقبع الإنسان في حالة حيرة وتوتر شديدين، وهذا ما كان خطاب ابن حزم في طوق الحمامة على وعي به، فوقت تأليف الكتاب، كانت الأندلس تمر بحالة من الاضطراب السياسي الذي سيعقبه فيما بعد تغيرات كثيرة، ستقود المجتمع إلى حقب تشدد وانحلال، أراد ابن حزم أن يوجه خطابه الإنساني؛ ليحمي مجتمعه من فكرة "اللأنسنة" أو خطابات الكراهية التي تنتشر في أزمنة التقلبات الاجتماعية، وجعل خطابه إنسانيًا بحتًا؛ لأنه كان يهدف للإصلاح الإنساني الذي يبشر فيه بفكرة الإنسانية، ودحض الأحادية الفكرية، وحماية الوجود الإنساني من التغريب والاغتراب داخل ذاته.

---

[1]) باولو فريري، تربية القلب في مواجهة الليبرالية الجديدة، ترجمة سامي محمد نصار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة (مصر)، ط 1 - ، 2007 ، ص: 66

[2]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 87

أراد ابن حزم توجيه خطابه للإنسان في كل حالاته، وأراد أن يوجهه إلى الإنسانية في علاقاته وتعاملاته، محذرًا من أسباب القهر الإنساني وممارساته التي قد تؤثر في حياة الآخرين، وتدفعهم لفقدان الأمل في الحياة، ومن ثم يتحول الإنسان من طاقة إيجابية إلى طاقة سلبية تضر الإنسان ولا تنفعه.

يشير خطاب ابن حزم إلى اللاأنسنة في المجتمع الأندلسي عندما يشير إلى مقتل جارية لأنها تغنت بشعر أمام الحاكم " خبر: ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة تغزل فيه بصبح أم المؤيد رحمه الله، فغنت به جارية أُدخلت على المنصور بن أبي عامر ليبتاعها، فأمر بقتلها."[1]

يكشف الخبر الذي أورده ابن حزم في كتابه طوق الحمامة –الذي يتحدث فيه عن الحب، وسلامة العلاقات الإنسانية–عن شيوع اللأنسنة في بلاط حكام الأندلس، تجاه البسطاء، الذين لا يملكون أسباب الحياة؛ فاستحل هؤلاء الحكام دماءهم لأتفه الأسباب، فما ذنب الجارية التي تغنت بشعر رقيق في الحب؛ لترضى الحاكم الذي قد عزم شراءها، ولم يشفع جهلها بقصة الشاعر أو بالمتغزل فيها لها، لكن اللاإنسانية المتجذرة في نفس الحاكم، لم تلتفت لحرية هذه الجارية؛ فقرر أن ينهي حياتها في غضبة.

لم يكن هذا الحدث اللاإنساني في بلاط حكام الأندلس استثناءً، فابن حزم يؤكد أن ممارسة القهر الاجتماعي صفة ملازمة للحكام، أراد بخطابه أن يقضي عليها، وينشر قيم الحب بكل أنواعه، ليس حب الرجل للأنثى فقط، إنما الحب بمفهومه العام.

"خبر: وعلى مثال هذا قتل أحمد بن مغيث، واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم ألا يستخدم بواحد منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم إلا الشريد الضال. وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء، ومثل هذا كثير؟.[2] إن مثل هذا الخطاب الذي يشير إليه ابن حزم في معرض حديثه عن الحب وقصصه يريد أن يحرر النفس الإنسانية، ويدفعها للتمرد على ظلم النخب المتسلطة، وبناء حياة إنسانية تقوم على أساس الحرية الإنسانية، " ذلك لأن الإنسان عندما يلتزم بالعمل "..." لا يمكن أن يظل سلبيًا

[1]) المرجع السابق، ص: 147
[2]) المرجع السابق، ص: 147

في مواجهة العنف".[1] المجتمعي الذي ساد، حيث نشرته النخب المتسلطة على عموم الشعب، فصار هذا سمتًا مجتمعيًا، سعى خطاب ابن حزم لفضحه والخلاص منه.

الحب بوصفه خطابًا إنسانيًا عامًا " أنسنة الحب "

"الإنسان موهبته العقل، إنه الحياة التي تعي ذاتها، إن لديه وعيًا بنفسه، وبرفاقه، وبماضيه وبإمكانات مستقبله، هذا الوعي بالنفس باعتبارها ذاتية مستقلة الوعي باتساع حياته القصيرة، الوعي بأنه قد ولد بدون مشيئته وسوف يموت ضد مشيئته، الوعي بأنه سيموت أمام أولئك الذين يحبونه أو أن أولئك الذين يحبونه سيموتون أمامه، الوعي بوحدته وانفصاله، الوعي بعجزه أمام قوى الطبيعة والمجتمع، كل هذا يجعل من وجوده المنفصل المفكك سجنًا، لا يطاق، وقد يصاب بالجنون إذا لم يستطع أن يحرر نفسه من هذا السجن وينطلق، ويوحد نفسه – بشكل أو بآخر – مع الناس مع العالم الخارجي."[2]

يظن البعض أن ابن حزم في كتابه طوق الحمامة كان يقصد الحب الخاص بين الرجل والمرأة، ذلك الحب الغرزي القائم على الشهوة المتبادلة بينهما؛ لكن حقيقة خطاب ابن حزم، أنه كان خطابًا إنسانيًا عامًا، قصد به نشر دستور الأخلاق، فبالحب تحيا الأمم، وتستطيع أن تتقي كثيرًا من المشاكل الاجتماعية التي تعيق سبل النهضة الحضارية، فمن واقع المجتمع الأندلسي – كما يراه ابن حزم – بدأ يفتقد الإشعاع الإنساني المؤثر في أخلاقيات المجتمع وأفكاره، وبدأ الركود والجمود والتخلف، والانغلاق يسيطر على القلوب والعقول، فراح ابن حزم ينشر أفكاره، ويؤسس لنظرية إنسانية، تتلاقي فيما بعد مع ما سيظهر في الغرب الأوروبي تحت عنوان الأنسنة، وبدا أن ابن حزم ينطلق في رؤيته من مركزية القلب، بوصفه مركز الذات الإنسانية، التي تتحكم في العقل، والجسد معًا، وكأنه كان يريد أن يؤسس للقلب بوصفه الفاعل المؤثر في حياة الإنسان، وهو المركز الحقيقي لأنسنة الإنسان، ودفعه لخلق مجتمع سوي ناجح؛ لذلك نادى بخطاب الحب بوصفه خطابًا إنسانيًا عامًا؛ لا بد أن يسود المجتمع الأندلسي؛ حتى يضمن النهوض، ومقاومة الانغلاق بكل صوره.

---

[1]) باولو فرايري، تعليم المقهورين، ص: 21

[2]) إيريك فروم، فن الحب، تر: مجاهد عبد المنهم مجاهد، دار العودة بيروت، 2000م ص: 19

" كذاك يعقوب نبي الهدى ... إذ شفه الحزن على يوسف شم قميصاً جاء من عنده ... وكان مكفوفاً فمنه شفي وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد وقد جمعت في أصلها بالمصطكي وبالشمع الأبيض المصفى، ولفت في تطاريف الوشي والخز وما أشبه ذلك، لتكون تذكرة عند البين."[1]

يستشهد خطاب الطوق في التأكيد على مركزية القلب بقصة نبي الله يعقوب في حزنه على ابنه يوسف؛ ليؤكد أن القلب هو المركز الفاعل في مشاعر الإنسان وحياته، فبسبب الحزن، فقد النبي يعقوب بصره، وبسبب الحب ارتد إليه بصره، عندما علم بقرب لقاء ابنه، وفي هذا دليل واضح على أن القلب بما يملك من تأثير يستطيع أن يؤسس لحياة منغلقة أو منفتحة ذات رقي حضاري؛ لأنه ينشر الحب، السلام الاجتماعي داخل الأمم، فمن وجع القلب وانغلاقه فقد يعقوب بصره، وبالقلب وانفتاحه وسعادته، رُد له بصره، هكذا حياة المجتمعات التي يسودها الحب والتعاون، تعلو القيم الأخلاقية، وتسود الإنسانية؛ فتنهض الأمم.

لكن مع غياب مركزية القلب، وهيمنت مركزية العقل بجفافها، وحساباتها المادية المركبة، تضطرب الأمم، ويرتفع صوت الصراعات، وتتصارع الأمم فيما بينها، وتتصارع المجتمعات وأفرادها، فتنشأ علاقات مشوهة، وأحاديث قمعية، أو ضالة ومضللة.

"_كذلك فعل السامري وقد بدا ... لعينيه من جبريل أثر ممجد، فصير جوف العجل من ذلك الثرى ... فقام له منه خوار ممدد."[2]

لقد فشل السامري لأن مركزية القلب أُصيبت بخلل واضح، عندما غيّبت الفكرة، ليحل محلها " الجسد " أو المادة، فالسامري أزاح فكرة الحب الإنساني المجرد لجبريل، إلى محاولته تجسيد صورته، أو خلق بديل له في صورة مادية، فحدث الضلال، هكذا إذا أزاح الإنسان القيمة العاطفية، وأبدلها بقيمة مادية متجسدة في صورة إنسان أو حيوان، أو صنم، فقدت المجتمعات مقومات نجاحها، ونهضتها.

[1]) ابن حزم طوق الحمامة، ص: 232
[2]) المرجع السابق، ص: 233

قد تجعلك مركزية القلب والشعور وفساده، تسير في غير الطريق القويم، وهذا ما يشير إليه خطاب ابن حزم، فضلال السامري جاء بسبب هيمنة قلبه عليه، وفشله في التفريق بين الحق والباطل، وهذا ناتج عن فشل الإنسان في تربية قلبه التربية السليمة، التي تخلق الرؤية والبصيرة داخله، فانحراف القلب يغيب العقل، ويمنعه من التفكير، كما أن جفاف العقل قد يميت القلب، ويفقده السلام النفسي.

هنا يوسع ابن حزم في مفهوم " الحب "، حتى يصبح معنى الاتصال بين أجزاء النفوس ليس اتصالاً بين ذكر وأنثى، وإنما هو اتصال بين الأجزاء المتشابهة في كل صعيد، وعلى هذا الفهم، سيمضي في كل رسالته؛ فجهة العشق التي علتها اتصال النفوس ليست إلا وجهاً واحداً من وجوه المحبة."[1]

ماهية الحب:

لمن يكن خطاب طوق الحمامة الفلسفي خطابًا يحصر العاطفة أو الحب في العلاقة بين طرفي الحياة الرجل والمرأة، بل كان خطابه خطابًا إنسانيًا عامًا يؤسس للعاطفة الإنسانية، أو الحب الكوني الذي يربط الإنسان أو الحيوان بآخر، فالحياة الكونية تقوم على عاطفة الحب، فلولا الحب ما اكتملت الحياة في الكون، وما تكونت الحضارات، وكأنه يقول بالحب نستطيع تعمير الكون والاستمرار فيه.

لذلك فالحب عنده معاناة إنسانية؛ لأنها تُحمّل الإنسان واجبات المحبة وحقوقها، " الحب – أعزك الله – أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة."[2]

لقد وصف ابن حزم الحب بالهزل المؤدي إلى جد؛ لأنه من وجهة نظره بداية تلقائية لحياة الإنسان، التي بدأها في المقام الأول منذ بدء الخليقة بصورة الخيال، أو الابتسامة

[1]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 138، الهامش رقم 3
[2]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 90

الغفلى التي لم يشعر بها إلا بعد التورط في الحياة الإنسانية، ومعاناتها، فالحب كما يقول ابن حزم لا تستطيع أن تدرك جوهره، ولا أسبابه، إلا بالمعاناة التي هي أصل الحياة الكونية، أو حياة الإنسان، الذي بدأ وفق المرويات الدينية بمعاناة الهبوط إلى الأرض، بعد نعيم الجنة.

كانت نظرة ابن حزم للحب نظرة فلسفية، تختلف كليًا عن نظرة العرب للحب، فالعربي كان يجذبه " الجمال المثير، والعيون الفاتنة، والابتسامة الآسرة."[1] حقيقة كان خطاب ابن حزم الفلسفي في الحب خطابًا مختلفًا تمامًا عن العقلية العربية المادية الحسية، التي لا تؤمن بالحب إلا بين رجل وامرأة، بمفهومه الضيق لا الواسع، الإنساني الجسدي، لا الكوني المنفتح على حب الكون من أجل نشر قيم الحياة فيها؛ لذلك نرى "آسين بلاثيوس" يصف تجربة ابن حزم قائلًا" إن الإطار الذي رسمه ابن حزم لحبه، في هذه الترجمة الذاتية، في لهجة صادقة وسلامة نية نظرية، يظهر لنا من نفسية البطل شعورًا ممتازًا، أشد رقة وكمالًا من الحب الحسي غير المحتشم، ويمكن اعتبار ابن حزم في هذا الجانب استثنائيا نموذجيًا للحب الروحي والعفيف، الذي يسميه علماء النفس الحب الإفلاطوني أو الرومانتيكي."[2] تبدو نظرة آسين بلاثيوس على وجاهتها نظرة ضيقة، حصرت ماهية الحب عند ابن حزم عند الحب بين رجل وامرأة، لكنه حب محتشم، أو أفلاطوني كما وصفه، والحقيقة إن ما سرده ابن حزم كان أكثر عمقًا من تلك النظرة الضيقة للحب، فالحب بين الرجل والمرأة ليس هو الذي يفضي للموت، كما سرد كثيرًا ابن حزم في كتابه، إنما الحب الكوني وضياعه هو الذي يدفع النفس الصافية إلى اليأس ومن ثم كراهية الحياة، ومن ثم فقدان الرغبة في الحياة؛ فيموت الإنسان بعدها، كما أن الحب بمفهومه الضيق ينتهي عند اللقاء، أو حدوث الرغبة والتنفيس عنها، لكن الحب الإنساني للحياة، للأخلاق، للحق، لله هو الذي يدوم، وهو الذي أسهم على قلته في تعمير الكون، وخلق الحضارات.

" وعني أخبرك أني أحد من دهي بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة، وذلك أني كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي كانت فيما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية

[1]) الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وطوق الحمامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1977مص: 184
[2]) المرجع السابق، ص: 185

المتمني وغاية الحسن خُلقاً وخلقاً وموافقة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والاحجار، ...، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها؛ وعلى ذلك فو الله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة علي مسارعا طائعاً، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيت ذكرها، ولا أنست بسواها، ولقد عفى حبي لها على كل ما قبله، وحرم ما كان بعده."[1]

إن تلك القصة التي حكاها ابن حزم عنه نفسه تؤكد البعد الفلسفي الإنساني العميق لمفهوم الحب عنده، فالرجل أحب امرأة، لكنه ظل على وفائه لها، وحبه لها، حتى بعد مماتها، إنه الحب الإنساني العميق الذي يخلق أسباب الحياة، ويدفع الإنسان للتعمير، للخلق، والإبداع، وتستطيع الدراسة أن تزعم بأن الحب بمفهومه الكوني هو الذي خلق النفس المبدعة الثائرة على الواقع داخل ابن حزم، وإن هذا الكتاب هو ثمرة هذا الحب الإنساني الكوني، الذي ينتقل إلى كل المخلوقات الموجودة، إنها دعوة حقيقية لأنسنة المشاعر، لخلق إحساس عام بقيمة الحياة بين الإنسان والإنسان، بين الإنسان وبقية المخلوقات.

فكان الاختلاف في تعريف الحب، بسبب تنوع حالاته ورؤاه " وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع،.[2] فالحب مجهول السبب، ليس لجمال، أو لفتنة، أو لحسب، أو لنسب، إنما هو تعانق روحي بين طرفين، يؤلف بينهما ما لا يبصره الإنسان، ولا يعرف مسبباته؛ حتى أننا نبصر في أحيانا كثيرة الحب بين طرفين نراهما متنافرين أو متناقضين، لكن الذي يجمع بينهما هي الروح التي تخفى عنا، ولا نقف على جزئياته.

وفق تعريف ابن حزم للحب، ووفق كونه أساسًا إنسانيًا أو كونيًا فالحب في الشرع والدين ليس حرامًا " وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير."[3]

---

[1]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 223 : 224

[2]) المرجع السابق، ص: 93

[3]) السابق، ص: 90

نتيجة للسلطة الكبرى التي امتلكها القرآن والسنة النبوية " فقد لعبا دورًا كبيرًا في تشكيل المواقف الإسلامية للسلوك الأخلاقي، ولهذا كان من الطبيعي الاقتباس من هذين المصدرين، في كتب الحب، كبرهان في مسائل الصواب والخطأ ما يستحق المدح والقدح، اللائق وغير اللائق بالمسلم، وفي مثل هذه الحالات كان اهتمام المؤلف ينصب على ما هو مهذب أخلاقي، فاضل أو ما يرضي الله؟"[1]

كان ابن حزم كغيره من المؤلفين الذين سعوا إلى تأكيد شرعية الحب من خلال شرعيته الدينية، مؤكدًا أن الحب لا يتعارض مع الدين.

ولأن ابن حزم فقيه متصالح نفسيًا، يعرف دوره الديني جيدًا، ويرى أن الدين لا ينفصل عن الحياة، وكذلك لا ينفصل الفقه عن واقعه، ولا ينفصل عن الناس، ولا بد كى يحترم نفسه، أن يكون إنسانًا حقيقًا، صادقًا مع نفسه ومع الناس من حوله.

" لقد حطم كل الحياء المصطنع، وأتى على كل الأسوار العالية، التي تعزل الفقه عن الحياة، حين يقول الفقهاء للناس شيئًا ويصنعون شيئًا آخر، أو حين يمسكون بخناق الناس تضييقًا، جريًا وراء فهم قاصر، أو نفاقًا للسلطان، أو بحثًا وراء زائل من عرض الدنيا، ويجعلون من سماحة الشريعة قيودًا، ومن وعيها جمودًا، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما جري في الحياة الإسلامية واقعًا، وما يكتبه الفقهاء في مؤلفاتهم تشريعًا، أو يلقونه في حلقاتهم درسًا، أو يبشرون به بين الآخرين واعظين."[2] نجن إذن أمام فقيه يعي الذات الإنسانية وما جبلت عليه، وما غرس فيها، ولا يمكن الاستغناء عنه؛ لذلك سعى في وضع نظريته للحب، بما يتماشى مع الغرائز الإنسانية، وما تتطلبه أسباب الحياة، فكان حبه أو نظريته للحب، أندلسية تختلف تمامًا عن مفهوم الحب ونظرياته في الشرق الإسلامي، تلك النظريات التي بنيت في كثير منها على فكر الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا ينظرون لمفهوم الحب وللمرأة نظرة أقل سموًا من تلك النظرة التي قال بها ابن حزم في كتابه، فنظرته نظرة تحاول التوفيق بين الدين والحياة، الدين والحب، بما يضمن سعادة الإنسان واستقرار المجتمعات.

---

[1]) لويس أنتياجغون، نظرية الحب الدنيوي عند العرب، مجلة فصول، مج 12، ع 3 1993م ، ص: 126

[2]) الطاهر أحمد مكي دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ص: 224

الحب والطبقية " إنسان بلا صفات " :

سعى الخطاب الفلسفي للطوق في التأكيد على أنسنة قيم الحب ودورها في صياغة الحياة بصورة راقية إنسانيًا، يستطيع المجتمع من خلالها أن يحيا في هدوء وسلام وتواد شديد؛ لذلك راح الخطاب يمارس دوره الإصلاحي من خلال سرد المأثورات التاريخية التي تؤيد رسالة الطوق، في نشر الحب، والقضاء على الطبقية والفوارق التي سادت المجتمع الأندلسي، وفرقت بينه، وساهمت في تقويض سلطان الحضارة فيه.

كان خطاب ابن حزم يسعى لتأكيد الروابط الإنسانية، بمقاومة التحول الممقوت في المجتمع الأندلسي المتجه للمادية، للعلاقات القائمة على تبادل المصالح، لقد كانت نظرة ابن حزم نظرة بعيدة المدى بوصفه فيلسوفًا يتوقع المستقبل وفق حراك المجتمع، لقد كان يريد تأخير التوجه نحو اقتصاد السوق المنتج للحب المادي المغلف بالمصالح وأعمال التجارة، لقد خشي أن ينتج المجتمع " إنسانًا بلا صفات، إنسان الحداثة الباكرة الذي نضج حتى أصبح إنسانًا بلا روابط، الإنسان الاقتصادي والإنسان الاستهلاكي، يشيران إلى إنسان بلا روابط اجتماعية."[1]

" ثمة العديد من الآراء التي تشكل جزءًا من نظرية الحب، وترتكز على نصوص مقدسة ليست موضع جدل، وتلقى قبولًا عامًا؛ ولهذا على سبيل المثال يوافق الجميع على بذل ما في وسعهم لتحقيق الاتحاد الشرعي بين المحب والمحبوب؛ حتى لو استلزم الأمر – في ظل ظروف معينة – قيام المرء بتضحية مالية أو عاطفية كبيرة."[2] من خلال تلك الرؤية التي سادت المجتمعات الإسلامية، راح ابن حزم للترويج لتلك المأثورات بهدف التشجيع على الحب والتضحية في سبيله، بالمال، والجاه، والسلطان.

يتشكل أي مجتمع عبر طبقات اجتماعية واضحة، متباينة، متعارضة، كل طبقة تنظر للطبقة الأخرى نظرة سلبية، فالطبقة الأرستقراطية تنظر للطبقات الأدنى نظرة احتقار واستعلاء، وفي المقابل تنظر بقية الطبقات للأرستقراطية نظرات حقد وحسد وكراهية،

[1]) زيجمونت باومان، الحب السائل، عن هشاشة الروابط الإنسانية، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1: 2016م، ص: 109

[2]) لويس أنتياجغون، نظرية الحب الدنيوي عند العرب، ، ص 126

وتستمر هذه النظرة في الوجود والاستمرار، لا يستطيع أن يخفض منها، أو يروضها، ويقضي عليها سوى الحب، فللحب سلطان خاص على القلوب والعقول، فمن خلال مركزية القلوب تستطيع أن تقضي على صلف مركزية العقل وحساباته المعقدة؛ فنجد الحب يقضي على الفكر الطبقي، فيميل القلب لمحبوبة أو لمحبوب من طبقة أقل أو أعلى، دون النظر لأية حسابات عقلية، وهذا ما كشف عنه خطاب الطوق الفلسفي، الذي راح يؤكد على أن المشاعر الإنسانية الصادقة قادرة على هزيمة أية طبقية أو فروق اجتماعية بغيضة، يصنعها العقل الجمعي للحفاظ على مكتسباته المادية.

" وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبي عامر بواجد، بنت رجل من الجنانين حتى حمله حبها أن يتزوجها، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين الوزير عبد الله بن مسلمة، ثم تزوجها بعد قتله رجل من رؤساء البربر."[1] تحرك القلب فأحب دون الالتفات لأية فروق اجتماعية، بل سار في سعيه، حتى بلغ مراده، وتزوج من تلك المحبوبة التي تسكن الطبقة الدنيا؛ ولأن للحب سلطانه القوي، فلقد قتل المحب سعيًا في حصد قلب محبوبته، وإزالة العقبات التي تقف في طريق مسعاه العاطفي القلبي.

" أخبرني أن نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار الذي ولي الملك بعد وادعى الألوهية إلا بعد مدة من مولده، مساعدة لجارية كان يحبها حباً شديداً، هذا ولم يكن له ذكر ولا يرث ملكه ويحيي ذكره سواه."[2] لقد غيّب الحب كل الفوارق، بين المحب وحبيبته، حتى أن الملك نسي ابنه، من أجل محبوبته، تلك الجارية التي امتلكها؛ لكن حبه لها أنساه قدره وملكه، وابنه، إنها مركزية القلب التي تستطيع أن تغير المفاهيم، وتروض مركزية العقل القائمة على الحسابات المادية أو الرقمية.

أنسنة الحب وغياب العقل

لم يكن خطاب الطوق يسعى لعرض قصص الحب، ووصف حال المحبين بهدف التسلية، أو بهدف السخرية من الحب وأصحابه، إنما كان الخطاب إصلاحيًا، تحذيريًا، يسعى لإقامة علاقات إنسانية واجتماعية تخلق إنسانًا بصفات إنسانية ناجعة للحضارة

[1]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 92
[2]) المرجع السابق، ص: 92 : 93

الأندلسية، والإسلامية عامة، لقد كان خطابًا حضاريًا، يسعى لأنسنة الحب بوصفه مكونًا حضاريًا اجتماعيًا.

" إذا كان الحب هو مقدرة الشخصية الناضجة المنتجة؛ فيترتب على هذا أن المقدرة على الحب في الفرد الحي في أية حضارة معينة تتوقف على تأثير هذه الحضارة على شخصية الشخص المتوسط."[1] كان خطاب الطوق يؤكد أن الحضارة الإنسانية السليمة نفسيًا واجتماعيًا تخلق مجتمعًا صحيحًا ناجعًا للأجيال المتعاقبة؛ لكن المجتمع المادي القائم على القهر وغياب الرؤية يؤدي إلى غياب الوعي الحضاري، ومركزية العقل الجاف تؤدي إلى غياب العقل، فمجتمع بلا حب، هو مجتمع بلا عقل.

" خبر: وحدثني مولى أحمد بن محمد بن حدير، المعروف: أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن حدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لأخيه، فمنعها وباعها لغيره، وما كان في إخوته مثله ولا أتم أدباً منه."[2] إن القسوة وعدم الوعي النفسي والإنساني، يحول الإنسان إلى مسخ بلا عقل ولا قلب، فالمبالغة في المادية الإنسانية أو الحضارية تخلق جنونًا يفسد الحياة، فمروان بن يحيى أصابه الجنون؛ لأنه حُرم حقه في الحب والزواج بمن يحب، فصار إنسانًا بلا صفات – على حد تعبير زيجمونت – بلا حياة، رغم تمام أدبه وخلقه كما وصفه ابن حزم.

حذر كثيرًا ابن حزم من مغبة الجفاف الإنساني والعاطفي في المدن والحضارات، وضرب الأمثلة لذلك " وأخبرني أبو العافية، أن سبب جنون يحيى بن محمد بن عباس بن أبي عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات."[3] ضربت الأمثلة للقهر الإنساني، والحرمان العاطفي القاتل للنفس الإنسانية والحضارة، إن مغبة تشويه الأنفس الإنسانية خطيرة، تهزم الإنسان، وتُضعف الحضارة، وتخلق أجيالًا ضعيفة هشة، غير قابلة للتطوير وخلق الحضارة، فنهايات الإنسان المقهور عاطفيًا سيئة " فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا وصارا في

[1]) إيريك فروم، فن الحب، ص: 77
[2]) ابن حزم ، طوق الحمامة، ص: 243
[3]) المرجع السابق، ص: 243

القيود والأغلال، فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهابهم لها، فتوفي رحمه الله.

وأما يحيى بن محمد فهو حي على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيته أنا مراراً وجالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة، وكان أستاذي وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوي، وكان يحيى لعمري حلواً من الفتيان نبيلاً."[1]

لقد كان خطاب الطوق صرخة إنسانية حضارية في وجه طوفان الجفاف الإنساني والحضاري، صرخة تهدف إلى خلق روابط إنسانية، اجتماعية، وحضارية، تسمو بالمجتمع، صرخة تشبه تلك التي أطلقها كانط في القرن الثامن عشر تحديدًا عام 1784م، تحذر أوروبا من غياب الروابط الاجتماعية والإنسانية، صرخة تهدف إلى خلق وحدة إنسانية، فبما أن الأرض كروية، فلا بد أن يتحد الإنسان، فلا مكان يسعنا سواها، ولا مدن سوى تلك المدن، فلا مفر من الوحدة، فالوحدة الكاملة للأنواع البشرية عبر مواطنة مشتركة هي المصير الذي اختارته الطبيعة للإنسان، بوضعنا على سطح كروي، فوحدة البشر، هي الأفق النهائي، لتاريخنا الكوني، وهو مصير لا بد أن نسعى إليه نحن البشر، ونحققه في أوانه، بدافع العقل، وغريزة حفظ النفس، وبهدايتهما."[2] كان الخطاب الفلسفي للطوق دعوة للأنسنة، للوحدة الأندلسية، من خلال الحب، الإلفة، الود القائم على الحرية، والأمن، وتمكين مركزية القلب من خلق أجواء الحياة النبيلة بين البشر، والتخفيف من مركزية العقل الجاف، الذي يؤدي في النهاية إلى الاضمحلال الإنساني والحضاري، وهدم مركزية العقل وغيابه، وتيه مركزية القلب وتخبطها.

طوق الحمامة وأنسنة الفكر النسوي في عصره:

قد يظن البعض أن ابن حزم الفقيه الظاهري المعروف قد ينحى منحى بعض السابقين عليه من الفلاسفة العرب، الذين نالوا من قدر المرأة، ووضعوها في مرتبة أقل من مرتبة الرجل، ونظروا إليها نظرة تعال واضحة، وهذا ما دفع بعض الباحثين لتأكيد تلك الفرضية المزعومة، بخلاف الحقيقة، من أن ابن حزم كان ينظر إلى المرأة نظرة دونية، ويعلي من

[1]) المرجع السابق، ص: 243
[2]) راجع : زيجمونت باومان، الحب السائل، ص: 169 : 170

دور الرجل، معتمدين على نص ذكره في كتابه، قد يوحي إلى أنه يؤمن بتلك الفرضية " والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل؛ والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب؛ والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات؛ والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء."[1]

يفهم البعض النص على أساس أنه قوامة للرجل على المرأة من خلال لفظة " ضبطت " التي تشير إلى القوامة أو التوجيه، ولفظة ضبطت هنا يقصد بها ابن حزم أُحسنت تربيتها، في بيت أهلها، ولم يقصد قوامة الرجل، وتأديبه للمرأة، وكذلك لا يقصد تخويفها أو تهديدها، لأنه يكمل نصه بعبارة " قطعت الذرائع " وقطع الذرائع تعني الحماية بالتربية، والتنشئة القويمة، والإبعاد عن مواضع الفتن، وهذا للرجل والمرأة على السواء، والدليل أن خطاب ابن حزم لا يغفل ذكر الرجل، والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق " والخطاب لم يذكر لفظة " انضبط مع الرجل؛ لأن الرجل في سن المراهقة وبداية الشباب والرجولة يتميز بالعناد والتمرد، ويرى أن قصد مواطن الفتن من أسباب الرجولة؛ لذلك لن يضبطه قول حميد أو لين، بل يخضع لذكوريته التي تؤثر فيه، فهو أقرب لمواطن الفتن من النساء، اللاتي يتميزن بالرقة، واللين، والابتعاد عن مواطن الفتن، وأسبابها، وما ذهبت إليه الدراسة يؤكده خطاب ابن حزم نفسه ففي ذات الصفحة يقول " ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة، أعني " الصلاح " غلطاً بعيداً."[2] فالخطاب الفلسفي للطوق الساعي إلى أنسنة

[1]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 270 : 271
[2]) المرجع السابق، ص 270

الرؤية الفلسفية تجاه المرأة، ونشرها؛ لتعم، وتسود المجتمع، بهدف خلق مجتمع متوازنِ يساوي بين الرجل والمرأة على السواء في الصلاح وفي غير الصلاح من أمور الدنيا والدين.

كان ابن حزم علي وعي بدور المرأة وثقلها في المجتمع؛ لذلك أعطاها حقها في الهيئة الاجتماعية وساواها بالرجل مساواة تامة في الحقوق الإنسانية، وقد فسر ابن حزم قوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) ، بأنها قوامة لا علاقة لها بالحقوق والطبيعة الإنسانية أو القدرة على تصريف الأمور، ولو كانت قوامته (أي الرجل) بهذا المعنى للزم أن يكون كل رجل أفضل من كل امرأة، وهذا– في نظر ابن حزم– لا يستقيم في لغة العقل"[1].

كانت المساواة التي ينادي بها خطاب الطوق مساواة في الصفات والخلق، في التعامل البشري مع الحب، ومع المواقف الإنسانية المختلفة، فلن نستطيع أن نقول بأن ابن حزم كان قد وصل في كتابه لحد المساواة المطلقة بين الرجال والنساء، فالدراسة تراعي رغم نصوص ابن حزم السياق التاريخي والنظرة العامة تجاه المرأة.

" وإني لأسمع كثيراً ممن يقول: الوفاء في قمع الشهوات في الرجال دون النساء، فأطيل العجب من ذلك، وإن لي قولاً لا أحول عنه: الرجال والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك، ولم يكن ثم من مانع، إلا وقع في شرك الشيطان، واستهوته المعاصي، واستفزه الحرص وتغوله الطمع، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته، حتماً مقضياً وحكماً نافذاً لا محيد عنه البتة."[2]

سعى ابن حزم في تكريم المرأة تكريماً عالياً، حين ارتفع بالنظرة إليها عن مستوى الشهوة وحررها من النظرة السلبية التي تراه مجرد متعة فقط، أو أنها أساس كل شر، وهي السبب الرئيس في الشرور، كما ذهب بعض فلاسفة العرب، فالمرأة في خطاب الطوق هي إنسان تتساوي مع الرجل في كل شيء؛ حتى في المعاصي والأخطاء، فكل إنسان رجل أو امرأة معرض للوقوع في الخطأ، أو شرك الشيطان على حد تعبيره.

كانت أنسنة الخطاب النسوي عند ابن حزم ثورة معرفية حقيقية، سابقة لعصرها، فهذه النظرة التي قضت على فكرة الرجل الكامل، المرأة الناقصة، كانت نقلة حضارية كبرى،

[1]) راجع، ابن حزم: المحلى، دار الآفاق الجديدة، ج، 9، الناشر: دار الفكر، بيروت.ص490.
[2]) ابن حزم، طوق الحمامة، ص: 269

سبقت بكثير كل تلك الدعوات إلى الخطاب النسوي، فالفارق بين دعاة الفكر النسوي حديثًا، ودعوة ابن حزم أنه انطلق فيها من منطلق الأنسنة " الإنسانية " التي تساوي بين الرجل والمرأة، فخطابه لم يطالب بثورة ضد الرجل، أو منح المرأة سلطات أو صفات أكبر من كونها أنثى بيولوجيًا، بل أسس للمساواة في النظرة بينها والرجل، بهدف خلق رؤية إنسانية عامة، تسوس المجتمع، وتدعم حضارته.

كان الخطاب الفلسفي لابن حزم يتدرج في التعامل مع المتلقي نفسيًا واجتماعيًا، ففي سعيه لتأكيد دور المرأة الإنساني أكّد أنه يصفها حقيقة لدورها المميز في كل شيء، فهي المعلمة، وحافظة القرآن الكريم، وراوية الحديث، والشاعرة والأديبة، وقبل كل ذلك المعلمة الفيلسوفة التي تربى على يديها، وكأنه وهو يقول ذلك يعي وعي متلقيه فأراد مخاطبته بنفس منطقه ووعيه " ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي؛ وهن علمنني القرآن ورويننني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني مذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك".[1]

تميز خطاب ابن حزم بالمنهجية العلمية، الموضوعية والحيادية؛ فتناول صورة المرأة بما تستحق، راصدًا إيجابياتها وسلبياتها، بوصفها إنسانًا مساويًا للرجل في كل شيء، ولا اختلاف بينهما. من هذا المنطلق جاء رصده لبعض سلبيات النساء، موظفًا القصص الواقعي الذي سمعه، أو شاهده بنفسه؛ مؤكدًا الطبيعة البشرية في المرأة كما الرجل.

" خبر: وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن منذر بن سعيد صاحب الصلاة في جامع قرطبة أيام حكم المستنصر بالله رحمه الله جارية يحبها حباً شديداً، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فقالت له ساخرة به؛ وكان عظيم اللحية: إن لحيتك أستبشع عظمها، فإن حذفت منها كان ما ترغبه، فأعمل الجلمين فيها حتى لطفت، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به، وكان في جملة من حضر أخوه حكم بن منذر

[1]) المرجع السابق، ص: 166

فقال لمن حضر: اعرض عليها أني أخطبها أنا، ففعل فأجابت إليه، فتزوجها في ذلك المجلس بعينه".[1]

تبدو هذه الصورة سلبية عن المرأة وتلاعبها بالرجل؛ لكن من يعرف منهج ابن حزم في تأليفه لطوق الحمامة يعي جيدًا أنه كان يؤسس لفكره بالقصص الواقعي، التي رآها أو سمع بها؛ ليؤكد رؤيته الفلسفية للرجل والمرأة على السواء، وقد يرى البعض أن هذه القصة عن المرأة تقلل من شأنها، أو تؤكد الخطاب الذكوري لابن حزم؛ لكن الثابت من منهج ابن حزم ونصوصه في طوق الحمامة يؤكد أنه كان ينقل عن المرأة كما ينقل عن الرجل، بكل ما فيهما من إنسانية، تحمل النقص البشري؛ لذلك نراه يؤكد وفاء المرأة وكتمانها للسر بخلاف الرجل " وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء، فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه، والتواطؤ على طيه إذا اطلعن عليه ما ليس عند الرجال، وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة. وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات".[2] يصف الخطاب الفلسفي للطوق المرأة بالوفاء وحفظ السر والسعي في مساعدة المتحابين، ويراها أنها ساعية دومًا في صناعة الأسر، وتزويج الفتيات، مهما تكبدن من جهد أو عناء، وهذا بخلاف الرجال الذين لا يلقون بالًا ولا يهتمون بستر النساء وتزويجهن " وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال، وأحب أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة".[3]

يؤكد الخطاب الفلسفي المرأة الإنسانة، التي تؤسس وفق مركزية القلب لأنسنة تقود الأمم، وتعالج الأمراض النفسية التي تظهر من خلال يأس الفتيات من الزواج، فهو بهذا يؤكد دور المرأة الإصلاحي في المجتمع.

كان خطاب ابن حزم خطابًا فلسفيًا عميقًا، يهدف إلى إصلاح المجتمع، وترسيخ الجيد فيه، من خلال رؤية متسقة مع الفكر الإسلامي وتعاليمه، التي تنظر للمرأة نظرة سامية،

[1]) السابق، ص: 157
[2]) السابق، ص: 164
[3]) السابق، ص: 165

بخلاف العقلية العربية البدوية التي كانت سائدة في المشرق الإسلامي، وكانت تنظر للمرأة نظرة سلبية، لقد كان ابن حزم يمثل الفلسفة الأندلسية الواضحة تجاه المرأة، ويعكس ما كان يتمتع به المجتمع الأندلسي من قيم إنسانية، ودور مميز للمرأة؛ فكانت منزلة المرأة تعلو تدريجيًا، ويظهر دورها العميق، رغم ما كان يسود المجتمع الأندلسي من بعض التجاوزات في حقها؛ لكن الصورة كانت أفضل بكثير من المشرق الإسلامي، وهذا ما حدا بالفيلسوف الإسباني «أورتيجا أي جاسيت أن يقول »: لقد تكلم ابن حزم في كتابه طوق الحمامة عن العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة وسجل تحليلاته العبقرية عن المرأة بعقل رجل موضوعي، لا يذم ولا يمدح، مستخدماً لهجة الفيلسوف وأسلوب الأديب ومحاولة الإنسان الدائمة لكي يفهم نفسه ويفهم الآخرين.

وفي ثنايا الطوق نحس من أسلوب ابن حزم وتحليله إكباراً للمرأة في أكثر أوضاعها التي أحلها الله، ومساواة تامة بالرجل في حدود ما أمر الله ".[1]

كانت هذه الصورة الإيجابية المعروفة عن الفكر الفلسفي لخطاب طوق الحمامة، الذي رد للمرأة قيمتها، ودورها الإنساني الواقعي في المجتمع الأندلسي، كانت الصورة موضوعية ومنهجية، تناقض تمامًا تلك الصورة التي رسمها أحد الفلاسفة المشرقيين للمرأة، والتي بدت – وإن كانت المبالغة واضحة فيها – تعكس جزءًا من نظرة المشرقيين أو بعضهم للمرأة، فالغزالي يقول في وصف المرأة وتصنيفها " واعلم أن جملة النساء على عشرة أصناف، وصفة كل واحدة تشبه صفة بعض الحيوانات. فالواحدة كالخنزيرة، والثانية كالقردة، والثالثة كالكلب، والرابعة كالحية، والخامسة كالبغلة، والسادسة كالعقرب، والسابعة كالفأرة، والثامنة كالطير، والتاسعة كالثعلب، والعاشرة كالغنمة[2] هذه صورة استعلائية شديدة، تميز بها أبو حامد الغزالي في نظرته للمرأة، التي رآها كما في النص السابق دونية تغلب عليها الصفات الحيوانية، وهذه الصورة الغريبة ربما نتجت عن تجارب شخصية للفيلسوف أبي حامد، ولا تعبر مطلقًا عن صورة المرأة الإنسانية؛ لكنها رغم تطرفها الشديد تنم عن صورة مشرقية تجاه

1) ابن حزم، طوق الحمامة، (تحقيق الطاهر مكي) كتاب الهلال مايو 1992م ص: 231

2) انظر أبو حامد الغزالي، منتزع من كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية - 1988 م ص 370 : 373

المرأة تخالف صورة خطاب ابن حزم ومجتمعه الأندلسي، وهذه المقارنة السريعة، تؤكد لنا حيادية ابن حزم وموضوعيته في حديثه عن المرأة، وتؤكد كذلك السلام النفسي الذي كان يتحلى به المجتمع الأندلسي مقارنة بالمجتمع المشرقي.

الخاتمة

يتضح من خلال قراءة كتاب طوق الحمامة لابن حزم أنه كان على وعي دقيق بخطابه الفلسفي والاجتماعي، فابن حزم كان يقصد بما يكتب خطابًا فلسفيًا إصلاحيًا للمجتمع الذي يحيا فيه، فبرغم كون البيئة الأندلسية التي عاش فيها بيئة أكثر انفتاحًا وقبولًا نسبيًا للآخر؛ لكنَّها وقعت كثيرًا في فك الأحادية الفكرية، والتشدد الديني الذي صاحب حقب الانحلال، والضعف العام في جسد الدولة هناك؛ لذلك انتشرت بعض الممارسات الاجتماعية القاسية، التي تحد من حرية الإنسان، وكان من أبرز ما لاحظه ابن حزم الفقيه، هو تجريم الحب، وحصره في إطار العلاقة غير الشرعية بين الرجل والمرأة، وكذلك ترسيخ قاعدة التنافس الإنساني الذي يؤسس للشحناء والبغضاء، الذي يولد الصراع، الذي يخلق جوًا عامًا من الخلل الاجتماعي؛ لذلك سعى ابن حزم إلى تأليف كتابه بوصفه وثيقة علاج روحي أو نفسي لما اعترى المجتمع الأندلسي أو لو أردنا الدقة القرطبي من سلبيات اجتماعية؛ أدت إلى تكبيل المجتمع بالقيود الكثيرة، التي جعلته قاطرة ثقيلة، تغالب من أجل الحفاظ على توازنها، وإبعاد شبح السقوط فريسة للجهل، والجهل هنا ليس نقيض العلم، إنما جهل الانغلاق الفكري، والأحادية، وقمع حريات الإنسان.

كشفت الدراسة أن ابن حزم من أوائل الذين أسسوا لمفهوم الأنسنة الحديث، من خلال تأسيسه للقم الإنسانية العامة التي تضمن حياة الإنسان.

أكدت الدراسة أن ابن حزم من أولئك الفلاسفة الذين نجحوا في الربط بين الفكر الفلسفي والواقع الإنساني والاجتماعي والسياسي موظفًا جماليات الخطاب الأدبي في التأسيس لرؤيته الإنسانية.

المصادر والمراجع

- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب أحمد خليل، مجلد 2 – ، منشورات عويدات بيروت (باريس)، ط 1 ، 1996 م
- ابن حزم: المحلى، دار الآفاق الجديدة، ج، 9، الناشر: دار الفكر، بيروت.
- ابن حزم، طوق الحمامة في الإلفة الإلاف، تح: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1987م
- ابن حزم، طوق الحمامة، (تحقيق الطاهر مكي) كتاب الهلال مايو 1992م
- أبو حامد الغزالي، منتزع من كتاب "التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية – 1988 م
- الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وطوق الحمامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1977م.
- إيريك فروم، فن الحب، تر: مجاهد عبد المنهم مجاهد، دار العودة بيروت، 2000م
- باولو فرايري، تعليم المقهورين، تر: د. يوسف نور عوض، دار القلم ، بيروت.
- باولو فريري، تربية القلب في مواجهة الليبرالية الجديدة، ترجمة سامي محمد نصار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة(مصر)، ط 1 – ، 2007 .
- تيرس حبيبة، ديالتيك الأنسنة واللانسنة في فلسفة المقهورين عند باولو فريري، مجلة متون، جامعة مولاي الطاهرة سعيدة، أبريل 2019م
- زهير الخويلدي، أنسنة الخطاب الديني، e-Kutub Ltd ، لندن، ط1، 2018م،
- زيجمونت باومان، الحب السائل، عن هشاشة الروابط الإنسانية، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1: 2016م
- لويس أنتياجغون، نظرية الحب الدنيوي عند العرب، مجلة فصول، مج 12، ع 3 1993م
- نجمة إبراهيم إدريس، طوق الحمامة خطاب في الأدب أم الثقافة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج 25، ع، 100، 2007م

Abstract:

The study seeks to confirm the importance of Ibn Hazm's book Tawq al-Hamamah, its important role in the humanization of human relations, the emphasis on human freedom, and the role of the reformist philosopher.

This study aims to address the problem of humanism for the Andalusian philosopher and jurist Ibn Hazm, "by presenting and analyzing his most important philosophical positions calling for humanism, in order to derive the conditions for its realization and the totality of its moral rules through studying his book "The Pigeon Collar", while revealing the most important mechanisms that should be The conscious human being did it in order to prove his liberation by standing against the thought of human oppression practiced by societies against their members, especially with regard to human feelings. The study also sought to confirm the thought of humanism that was prevalent in the state at the time, and contributed to its civilized decline, which prevented man from living his actual existence and his true life in freedom and safety that ensured his fulfillment of the mission for which he was created.

The study adopted the analytical method, and the study was divided into several sections, which concluded with results that confirm Ibn Hazm's pursuit of humanizing human relations.

key words:

Freedom, oppression, exploitation, dialogue, awareness